مؤتمر القلوب

للأستاذ محمد السيد زيادة

بقية المنشور فى العـــــدد ١٢٧

وبقيت حزيناً مطرقا أتفكر فى أساليب الشقاء على الأرض حتى أخرجنى من الحزن قلب رأيته حائراً بين القلوب موزعا عليها بجنحا فوقها !! يجد قلبا آسيا فيميل اليه مشفقا عاطفا يسأله عن قصته ثم يواسيه ويعزيه ، ويظل مائلا اليه بشفقته وعطفه حتى يتأكد أنه خفف عنه بعض ألمه . ثم يتركه ويمضى فى المجتمع نائحاً يردد فى نوحه صدى القصة التى سمعها من ذلك القلب ، ويذيع سرها منمقا ، ويصورها مجسمة ليتأسى صاحبها ويستعبر سامعوها ... ثم يصادف قلباً آخر ذا متربة فيبذل له قسطه من دموعه ومن عزائه ، ثم يمضى الى سبيله فى المجتمع موضحا ما غمض شارحا ما تعقد . وهكذا رأيته كالطائر الفريد يقضى كل وقته متنقلاً بين الأدواح والغصون يتسمع الهمس والنبض والأنين ، ويتغنى بما يصل الى حسه من شجو القلوب وأساها ، فيصرف فى ذلك راحته وهدوءه . ويتهافت على ذلك كأنما هو يؤدى وظيفة يحتم عليه الواجب أن يؤديها

قلت : قلب مَنْ هـذا القلب المؤمن العطوف الذى يعذب نفسه فى راحتنا ، ويصب علينا من مشاعره حنانا ورحمة ، وينساب بيننا كما ينساب الجدول فى الحديقة بين مختلف الزهور يغيث منها الظامئ ، وينعشُ الذابلَ ، ويُرقص المنتعش ؟

قالوا : هذا قلب شاعر . . . وما خلق الشعراء إلا رحمة للعالمين . . . قلب كريم يتعذب بين الناس بحنانه ، ليزرع الحنان فى قلوبهم بعذابه ؛ فتُرينا حياته كيف تكون حياة الملائكة إذا صاروا من بنى الانسان . إن فى أحنائه لعالماً فسيحاً تمتزج فيه آلام الناس بآلامه هو فتكون كتلة واحدة من الألم يتفجر من بينها ينبوع فوّار من الرحمة ينهل منه كل بائس

لكأنما هو مكلف باستخراج مصيبة لنفسه ، من كل مصيبة تنزل بغيره ، أو مرسل من عند الله لتخفيف أشجان مخلوقاته . فكم يفتش فى مناحى الحياة عن مآسيها وعبرها ليتحمل نصيباً منها ! وكم ينقب فى أغوار الكيان عن خفاياه ومكنوناته ليحدثُ الناس عنها ! وكم يكدّ ليخلق من كل ما حوله جنة لكل من حوله !

* * *

ولما أنى للمؤتمر أن يبدأ عمله وجدتُ قلب الشاعر أظهرنا اهتماما ، وأشدنا فرحا ، وأكثرنا حركة . وما كدت أعجب لهذا حتى عجبتُ لأكثر منه إذ علمت أنه هو الداعى إلى هذا المؤتمر

وساد السكون فترة ثم وقف قلب الشاعر يقول : دعوتكم إلى هنا اليوم يا اخوانى لأنادى فيكم بالوئام فهل أنتم مجيبون ؟ إذا كان ذلك ، وما أظن إلا ذلك ، فلنجمع إذاً أمرنا على اقرار المحبة ، وتبادل الوداد والاخلاص بيننا ؛ ولنترك إذن كل مايتعلق فى أهداب الحياة من المساوئ والمكاره التى اذا وقع أحدنا فى إحداها وقع فى أخس الصفات وبات مذموما ممقوتا ؛ ولنتنصّلْ إذن من شىء بغيض اسمه البغض ، ومن شىء كريه اسمه الكراهية ؛ ولنتجنب الوضاعة فى تجنب الحقد ، ولننبذ الأنانية فى نبذ الحسد

لنشرع لنا يا إخوتى سَنناً جديداً ، ونمشى فى نوره الى المثل الأعلى لنقاوة القلوب . كونوا جميعاً عصبة واحدة كلمتها الذائعة : نحن إخوة فليس بيننا إلا ما فى الاخاء من إخلاص ووفاء — كونوا جميعاً قلباً واحداً لا يحمل غير الايمان والحب

قال قلب الشيخ المصلح : أكرم بك يا قلب الشاعر !! لقد قلتَ ما أُحبُّ دائما أن أقوله وأن أعمل له . إنك لصورة منى فى قالب الجرأة ، وإنى لصورة منك فى قالب الحياء

ثم تحول الى الجمع وقال : انصتوا له يا أعضاء المؤتمر ،

وإذا للواقد فى البيوت تضاحكت
من شـدة الايقاد والإذكاء

خلت الربيعَ سعى اليك بحفله   والنارَ زهرَ الجنة الفيحاء
يُذكى الوجوهَ لهيبُها فتراهما   جمرين يشتملان فى الظلماء
ما غض من دفء الحياة ونارها   ثلج الشتاء على ثرى الغبراء
الحب والآمال فوق متونه   كالحب والآمال فى الصحراء

والقلب قلبٌ حيث كان اذا ذكت
نار الشـباب وشِرّةُ الأحياء

عبد الرحمن شكرى

وأطيعوه ، إنه يدعوكم إلى السلام

قال قلب الشاب الساذج المغتر وهو يرقص كالطفل يرى لعبة جديدة له في يد أمه : مرحى ... مرحى ... جاء السلام ... نعم السلام ؛ فلنتسارع جميعاً اليه ولنستبشر بالهدوء والطمأنينة

قال قلب الرجل المفسد : كأن لك غرضاً خفياً من وراء نداءك هذا يا قلب الشاعر ! ! فأنت تدعونا الآن إلى الانصراف عما خلقنا له من عمل وجهاد ، والركون إلى ما خلقنا لنحاربه من خمود واستسلام

قال قلب الشاعر : صه يا هذا القلب المتكلم ... ماذا في السلام من الخمود والاستسلام ؟ وهل معنى العمل والجهاد أن نتسابق في إضغائن والأحقاد ؟ اعملوا وجاهدوا ولكن فيما فيه الخير والنفع تعيشوا في حدود السلام سالمين

قال قلب المفسد : وكيف نسلم إذا كانت نواميس الطبيعة تحتم علينا أن تختلف طباعُنا ، فنختلف بها ، فيأخذ كل منا منهجا لنفسه ، فتتعدد الأحوال بتعدد المناهج ، فتنجم المشاكل فتخلق العناد ، وتستلزم العمل والجهاد

قال قلب الشيخ المصلح : ما أحطرك أيها القلب على كل محيط تندس فيه ! ! إنك لخبيث وتدافع عن الخبث بقوة هي فجور الخبث وتسلطه وانتقاله من طور الداء الى طور الوباء . لماذا لم يتكلم غيرك منابذاً دعوة السلام ، محاولا تفنيد الرسالة التي حملها الينا قلب الشاعر ؟ ولماذا لم تبدُ منْ غيرك نذُرُ الخلاف ووسائل الشر ؟ أليس هذا لأنك مجبول على الخسة وحقارة المبدأ ؟ . . . ما أقل شأنك عند الله ، وما أبعدك عن رحمته ، وما أحقك بأن تكون سخرية لكل ساخر !

قال قلب الشاعر : لقد فسد خلقُه ، ثم أعلن في هذا المؤتمر فسادَه ، ثم دافع عنه الصلاح ، ثم أراد أن يجعله نهجاً تتسلق فتعمل به جميعاً . . . . ليس بعد هذا حضيض لنحط ، أو قرار لنازل من مستوى الآدميين على دركات منها الوقيعة ، ومنها النميمة ، ومنها الدس ، ومنها الرياء ؛ وآخرها التبجح في كل ذلك ! ! أخرجوه عنا وأبعدوه

فانقضضنا عليه وطردناه ، وكان كل منا يشعر إذ ذاك بأن هذا القلب رذيلة تتحكك به ، فاتحد شعورنا فشعرنا كلنا بأنه رذيلة تريد أن تسلك سبيلها الظلم في المجتمع ، فوجب علينا أن نصدها ، بل وجب علينا أن نمحوها ... ولما طُرد من بيننا ذلك القلب الشرير ، أو ذلك الشر المتسلط ، أو ذلك الخطر المتسالل ، اسوأ الطرد كانت لا تزال بيننا قلوب من طبقته ، تعمل على شاكلته ، فتوجست خيفة ، وتضاءلت ، والتمست النجاة ، وانتدحت المخابئ . ولكنها كانت مع هذا حريصة على أن تظل مدسوسة في المؤتمر ، أو مخبوءة في مسمع مما يدور فيه لتشبع غريزة حب الاستطلاع التي هي احدى لوازم عملها ، وإحدى دعائم حياتها

وعرفناها فألحقناها بزميلها الذي فضح نفسه حين تكلم ، فكان شراً على نفسه حين أراد أن يكون شرا علينا ، وانقلبت عليه سيئات ما عمل قبل أن تصل الينا

* * *

ووقف قلب الشاعر يكرر نداءه ، ويستكمل رسالته ويقول : أحسب الآن أننا نجونا من الرذائل يطرد دعاتها ومحبذيها ، وأعتقد أننا سنحارب القلوب المضرة ما استطعنا حتى تصير مثلنا أو تنقرض ، وأن كلاً منا قد آمن بنعمة السلام ، وأننا قد أصبحنا إخوةً ، ولكن تظل أخوّتُنا ناقصة حتى نسبغ عليها شيئاً ضرورياً لها هو روح الأخوّة . . . فينظر بعضنا الى بعض دائماً نظرة الاحترام الخالية من الاستصغار أو الاستنكار أو الاستهتار ، وإن يكن منا قلب ضئيلا في كونه ، قليلا في شأنه . . . فليكن بيننا كبيراً في مقداره ، كثيراً في اعتباره ، وليكن شعوره محترماً كشكل شعور

فاستاء قلب الجبار وقال : يا عجباً ! ! كيف يساغ أن نعامل الضعيف كما نعامل القوى ؟ ؟ وكيف نجلُّ ذاك كما نجل هذا ؟ وكيف نعتبر ذاك في ضعفه كما نعتبر هذا في قوته ؟ ألا يكون في ذلك خلط ، وتزييف في الحقائق ، وغبن للكرامة ، وتشويه للحياة ؟ . . . . إنها لمساواة قاتلة باطلة ، كالمساواة بين الخادم وسيده ، أو بين الطفل وأبيه . فلا العقل يتصورها ، ولا الطبيعة تقيمها ، ولا ظروف المعايش تبيحها

قال قلب الشاب الساذج المغتر : أجل ... أجل .. هذا هو الصواب ؛ فالقوى لا يمكن أن يقبل الضعيف عديلا له أو شبيهاً به ، لأن القوى لا يستطيع أن يهبط حتى يعيش عيشة الضعيف ، والضعيف لا يستطيع أن يعلو حتى يعيش عيشة القوى ، فليكن القوى فوق الضعيف ، ولتكن القوة موضع الاحترام

قلت أنا أخاطب قلب الجبار : أنت واهم أيها القلب المتجبر

تحسب أن الصدارة للقوى يعمل مايشاء فيرتاح الجميع لما يعمل ؛ ثم يأبى عليك جبروتك أن تساوى من يقل عنك قوة ومكانة ؛ ولكن هوّن عليك فانك لم تُدْعَ إلى ما فيه غبن لكرامتك أو حطم لكبريائك ، وإنما دُعيتَ إلى ما تمد كرعا لو فعلته . دعيت إلى تبادل المحبة مع القوى والضعيف على السواء ؛ فبقدر قوتك يحسب على الضعيف كرَمُك ، وبقدر كرمك يُعتبر تواضعك ، وبقدر تواضعك يكون سموُّك

نحن نعرف أنك قوى ، ونعرف أنك لست وحدك القوى ، فأكثرنا ذو قوة ... وإن لم تكن قوته فى بنيته ففى صلابة إيمانه ، أو فى طيبة عنصره ، أو فى طهارة نزوعه ، أو فى عزّته وإبائه ؛ وقد ينقصك شيء مما فى غيرك من هذا كما ينقص غيرك شيء مما فيك من القوة . فلنقدر كل هذه الصفات ، ولنعلم أن القوة ما هى إلا واحدة منها

قال قلب الشاعر : ليس ذنب الضعيف أنه ضعيف ، لأنه خلق كذلك فلم يُدْخِل شيئاً جديداً على خلقته ؛ والقوى يكون مذنباً إذا اختال بقوته ، لأنه يدخل باختياله عيباً كبيرا على خلقته . . . .

* * *

وكنت أظن أن عمل المؤتمر قد انتهى إلى هذا ، ولكن وقف قلب الشاعر مرة أخرى يستكمل رسالته ويقول :

مادمنا اخوة ، ومادمنا نشعر بروح الأخوّة . . . . فعلينا واجب هو آخر واجباتنا غير أنه أهمها ، هو أن نقدم العون والمواساة لمن كان منا منكوباً أو مكروباً ؛ فمثل هذا القلب - وأشار الى قلب الوسس بجانبى فبكى - كم يألم ، وكم يكتم ألمه ، لأنه لا يجد من يشكوه اليه ، وإن وجد فانه لا يجد من يواسيه فيه ، فيبكى وحده كلما انفرد فتذكر ، أو كلما اجتمع فتفكر - بكاء الصابرين على غير أمل ، والأحياء فى غير رجاء

فأقبلنا جميعاً على هذا القلب المسكين نواسيه ، حتى انفرجت كربته ؛ ثم أخذنا نتشاكى ونتناجى ونتواسى ؛ ثم أقبلنا على قلب الشاعر نكبره ونصافحه ونحييه ، ثم انفض المؤتمر

ولما خرجت من التفكير والحلم ، ثم عدت كما أنا شخصاً فى صدره قلب ، قلت : آه ! ! كم يعيش العالم سعيدا لو اتحدت قلوبنا فاتحدنا ؛ وكان أساس اتحادنا الأخلاص !

(طنطا)   السيد محمد زيادة

بين المتنبى وسيف الدولة

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

غادر المتنبى أرض مصر وشعوره لأميره السابق سيف الدولة نستطيع أن نجمله فى بيتين قالهما المتنبى وهما :

فارقتكم فاذا ما كان قبلكم   قبل الفراق أذى ، بعد الفراق يد
إذا تذكرت ما بينى وبينكم   أعان قلبى على الشوق الذى أجد

فهو قد خرج من مصر ونفسه توافة إلى سيف الدولة ، مشتاقة إلى الاستظلال بكنفه ، لأن آماله التى غرسها عند غيره لم يجن منها غير الخيبة والندامة ؛ ولم يكن اشتياق سيف الدولة إلى لقاء المتنبى بأقل من ذلك ، فقد أحس بعد فرقته بفراغ لم يملأه شاعر ممن حوله ، ورأى بلبله الغريد قد طار عن أيكته ، وحط عند غيره ، ولم يكن أحب إليه من عودته ، كما دلت على ذلك فعال سيف الدولة بعد أن فارق المتنبى أرض مصر ، وهو إحساس كان من السهل على المتنبى أن يستثمره وأن يقصد تواً أرض سيف الدولة ، ولكنه لم يفعل لأمور نستطيع تلخيصها فيما يأتى :

أولاً ما فطر عليه المتنبى من سمو النفس والعظمة التى كانت تملأ جنبيه ، فقد عز عليه أن يلجأ إلى من فارقه مغضباً منه ، وأن يذهب إلى من فرّط فيه ولم يبق عليه ، بل سمع فيه قول الوشاة

وثانياً هذا الشعر الكثير الذى قاله مضطراً تحت عوامل نفسية ، وعوامل خارجية وثورة واضطرام عواطف ، وسب فيه سيف الدولة ، فلم يجد من اللياقة أن يقصد من هجاه ، ورأى فى ذلك غضاضة لا يسيغها ولا يقبلها

لم يذهب المتنبى إذاً إلى سيف الدولة ولكنه قصد الكوفة ، وهناك كثيراً ما ذكر أيامه السالفة لدى الأمير وعهده الغابر ؛ أما سيف الدولة فقد نسى كل ما ذكره المتنبى عنه حينما كان بمصر وأرسل إليه ابنه بهدية ، فلم يجد المتنبى ما يشكره به سوى شعره ، فكتب إليه قصيدة بدا فيها ما يكنه من جميل الذكرى وفيها يقول :

كلما رحبت بنا الروض قلنا   حلب قصدنا ، وأنت السبيل
والمسمّون بالأمير كثير   والأمير الذى بها المأمول
الذى زلت عنه شرقاً وغرباً   ونداه مقابلى ما يزول
نقص البعد عنك قرب العطايا   مرتعى مخصب وجسمى هزيل